قصة بلا نهاية

للكاتب الروسي أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

منذ سنوات عديدة ، وفى الساعة الثانية صباحا اندفعت طاهيتى إلى مكتبي — على غير انتظار — باهتة اللون مضطربة ، وخبرتنى أن السيدة ميمونيه العجوز ، مالكة البيت المجاور لبيتى جالسة فى المطبخ. ووقفت الطاهية وهى تلهث :

« وهى ترجو ياسيدي أن تذهب إليها ، فقد أصاب السوء نزيل دارها ... فقد أطلق على نفسه الرصاص ، أو هو قد شنق نفسه »

فقلت :

«وماذا أستطيع أن أفعل .. فلتذهب إلى الطبيب أو إلى البوليس ! »

قالت الطاهية :

« وكيف تستطيع هى أن تبحث عن طبيب : إنها لا تقدر على التنفس إلا فى عناء وجهد ، ولقد تجمعت منكمشة تحت الموقد . . فهى هائمة لا تملك أعصابها .. فمن الإحسان أن تذهب إليها ياسيدى»

فارتديت معطفى وقبعتى وقصدت إلى بيت السيدة ميمونيه . وكان الباب الخارجى الذى اتجهت إليه مفتوحاً . فوقفت بجواره لحظة متردداً فيما أفعل ، ثم تخطيت عتبته داخلا إلى فنائه غير باحث عن جرس البواب .. وفى الظلام تحت السقيفة المتهدمة وجدت الباب الداخلى غير موصد ، ففتحته ومررت إلى المدخل فلم أر أى بصيص من الضوء ، فقد كان الظلام حالكا . وفى ذلك الظلام شممت رائحة بخور يملأ الجو.

وبينا أتحسس طريقى للخروج من المدخل صدمت كوعى شيئ مصنوع من الحديد ، وتعثرت فى الظلام بمائدة لم أتبين نوعها فكادت تسقط على الأرض . واهتديت آخر الأمر إلى الباب المغطى بقماش من الصوف الخشن ، فجزته إلى ردهة صغيرة

وما أكتب الساعة قصة خيالية ؛ وأبعد ما أفكر فيه هو إثارة مخاوف القارىء ، ولكن الصورة التى وقع عليها نظرى وقد تخطيت عتبة الباب ، صورة شبحية لاتستطيع غير يد الموت رسمها . فلقد كان فى مواجهتى مباشرة باب يؤدى إلى غرفة انتظار صغيرة . وكان فى الغرفة ثلاث شمعات من النوع الرخيص موضوعة فى صف واحد ، تلقى ضوءاً ضئيلا على الجدران المغطاة بورق رصاصى باهت اللون . وفى وسط الغرفة مائدتان وضع عليهما نعش . على جانب رأسه شمعتان لايكاد يكفى ضوؤهما لإظهار معالم وجه أصفر فاتم نصف مفتوح الفم مدبب الأنف . وقد لفت الجثة بقماش من الموسلين فى غير نظام ، من الرأس إلى أطراف القدمين ، وقد برزت من بين هذا الكفن يدان صفراوان جامدتان قابضتان على صليبين من

الشمع . وكانت أركان الغرفة الصغيرة المظلمة القابضة للنفس ، والأياقين القائمة وراء النعش ، والنعش نفسه ، وفى الجملة كل شىء فى الغرفة ، غير بصيص الضوء الخفيف ، كان ساكناً سكون الموت ، كأنها القبر

فقلت فى نفسى وقد أجفلتنى هذه الصورة غير المنتظرة من صور الموت :

« ما أعجب هذا ! ولماذا هذه العجلة ؟ إن قتيل هذه الدار لم يكد ينتهى — على ما علمت — من شنق نفسه أو من إطلاق الرصاص عليها . . وهذا نعشه قد أعد بالفعل ! »

والتفت حولى فرأيت إلى الشمال باباً نصفه من الزجاج ، ورأيت إلى اليمين مشجباً مائلاً علق عليه معطف رث من الفراء

وسمعت أنين إنسان يقول :

« الماء . . . »

وجاء الأنين من جهة الشمال من وراء الباب الزجاجى . ففتحت ذلك الباب ودخلت إلى الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة التى تسرب من خلالها ضوء خفيف منبعث من مصباح الطريق

فقلت متسائلا :

« أيوجد أحد هنا ؟ »

ودون انتظار للجواب أشعلت عوداً من الثقاب وهالنى ما رأيت على ضوئه : رأيت رجلا جالساً عند قدمى فوق الأرض الملطخة بالدماء . ولو أن خطوتى كانت أوسع لوطأته قدماى ؛ وكانت ساقاه ممدودتين إلى الأمام وكفاه تضغطان الأرض ، باذلاً بهذه الحركة جهده لرفع وجهه الجميل وقد غطاه شحوب وسط لحيته حالكة السواد ؛ وقد قرأت فى عينيه الكبيرتين اللتين رفعهما نحوى صورة معجزة الوصف من الفزع والألم والتوسل ؛ وكان العرق المتحدر من جبينه ، والمعنى البادي على وجهه ، وارتجاف يديه اللتين اتكأ عليهما ، وتنفسه الثقيل ، وأسنانه المتقلصة ؛ كان ذلك كله ناطقاً بأنه يعانى من الألم ما لا تحتمله القوة البشرية . ورأيت المسدس ملقى على مقربة منه وسط بركة من الدم

فلما انطفأ عود الثقاب سمعت صوتاً خافتاً يناديني:

« لا تذهب ، وستجد شمعة فوق المائدة »

فأشعلت الشمعة ووقفت وسط الغرفة لا أدري ما أنا فاعل بعد . وقفت أنظر إلى الرجل الجالس على الأرض وقد خيل إلى أننى رأيته من قبل

وقال الرجل هامساً : الألم فوق ما أحتمل ... وليس بى من القوة ما يمكننى من إطلاق الرصاص على نفسى مرة أخرى . وهذا عجز فى الارادة غير مفهوم ... »

فطرحت معطفى عن كتفى وانحنيت على الرجل الجريح أعنى بأمره ... فحملته كالطفل بين ساعدىّ وأرقدته على الصفة المغطاة بالجلد الأمريكى ، وخلعت عنه ملابسه فى عناية ورفق ، وقد ارتجف برداً عند ما عريته . ولكن الجرح الذى رأيته لم يكن ليتفق مع رجفته ولا مع الذي بدا على وجهه من معانى الألم . فقد كان جرحاً صغيراً . وقد مرت الرصاصة بين الضلعين الخامس والسادس فى الجانب الأيسر فلم ترد على أن قطعت الجلد واللحم ، وقد وجدت الرصاصة نفسها مستقرة فى طيات بطانة سترته بالقرب من الجيب الخلفي . فوقفت النزيف بخير ما استطعت من الوسائل . واصطنعت له ضمادة وقتية من قماش إحدى الوسائد ومنشفة ومنديلين

وقدمت له قدحاً من الماء ثم غطيته بمعطف الفرو المعلق على المشجب . ولم ينبس أحدنا بكلمة واحدة فى أثناء هذه العملية . فقد مضيت فى عملى بينما هو راقد لا يتحرك ينظر إلي بعينين مسبلتين كأنما هو يشعر بالخجل من فشله فى الانتحار ومن التعب الذي سببه لى .

ولما انتهيت من تضميد جرحه قلت له :

« والآن أرجو أن تسكن فى مكانك فلا تتحرك ، حتي أذهب إلى الصيدلية فأحضر بعض الشيء »

فأمسك بكمى وفتح عينيه الواسعتين وقال :

« ليس ثمت ما يدعو إلى ذهابك »

وقرأت فى عينى الرجل معانى الفزع ، ولقد كان خائفاً من ذهابى ، ثم عاد يقول :

« نعم ليس هناك ما يدعو إلى ذهابك ، فابق هنا خمس دقائق أخرى . . أو عشراً . . إذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك . أرجو يا سيدى أن تبقي إلى جانبي »

وكان وهو يرجونى يرتجف وأسنانه تصطك . فأجبته إلى ما أراد وجلست على حافة الصفة . ومرت عشر دقائق فى سكون تام ، فقد جلست صامتاً أنظر حولى إلى الغرفة التى جاء بى القدر إليها على غير انتظار . فيالله من منظر ينم عن الفقر المدقع ! فهذا الرجل ذو الوجه النسائي الجميل واللحية الكثة المعنى بها ، لم يكن حوله من المتاع ما يمكن أن يحسده عليه أفقر العمال : صفة مغطاة بالجلد الأمريكى الممزق ، وكرسي رخيص قذر ، ومائدة مغطاة بقطع من الورق ، ولوحة قديمة معلقة على الجدار . . . هذا هو كل ما رأيت . أما جو الغرفة فكان رطباً قابضاً وقال الجريح وعيناه مغمضتان :

« ما أشد الريح ! وما أقسى صفيرها ! »

فقلت :

« نعم إنها شديدة . . . والآن يخيل إلى أننى أعرفك » ألم يكن لك دور فى المرسحية الخاصة التى مثلت بدار الجنرال لوهاتشف فى السنة الماضية ؟ »

ففتح عينيه وسأل متعجلا :

« وماذا فى هذا ؟ »

وكأنما قد غشت عينيه سحابة قاتمة

فقلت :

— « إنى على التحقيق قد رأيتك هناك . أليس اسمك فاسيليف ؟ »

— « إذا صح ذلك فماذا وراءه ؟ إنه لن يحسن من حالى أن تعرفنى »

— « لا ولكنه مجرد سؤال »

وأطبق فاسيليف عينيه ، وكأنما هو قد امتعض فأدار وجهه إلي ظهر الصفة . وقال متمتما :

« لست أفهم معنى لهفتك . ولعلك تسألني بعد ذلك عن السبب الذى دفعنى إلى الانتحار ! »

وقبل أن تمضى دقيقة واحدة أدار وجهه إلى مرة أخرى وفتح عينيه وقال فى لهجة باكية :

« أرجو أن تغفر لي لهجتى . ولكنك ستقرنى على أننى مصيب : فليس من الكرم أن تسأل محكوما عليه كيف دخل السجن ، ولا أن تسأل متنحراً لماذا أطلق الرصاص على نفسه . . . نعم ليس ذلك من الكرم ولا من الرقة . . . أن يشقي الانسان لهفته البليدة على حساب أعصاب إنسان آخر ! »

فقلت للرجل متلطفاً :

« ليس هناك ما يدعوك لأن تثير أعصابك . . . فلم يخطر لي قط أن أسألك عن تصرفاتك »

« لقد أوشكت أن تسألني ... وهذا ما يعمله الناس دائماً ، ولو انه ليس هنـاك من فائدة فى السؤال . على انني لو أخبرتك لما صدقت أو لما فهمت ... ويجب أن أعترف انني أنا نفسي لا أفهم من الأمر شيئاً ... هناك عبارات تستعمل فى إدارة البوليس وفى الصحف مثل قولهم : « القشل فى الحب » و « الفقر المدقع » ولـكن الأسباب غير معروفة . . . غير معروفة لى أنا وغير معروفة لك أو لإدارات الصحف حيث يتبجحون بأن يكتبوا « يوميات منتحر » والله وحده هو الذى يعرف حالة نفس الانسان الذى يقتل نفسه ، ولـكن الناس لا يعرفون شيئاً من ذلك »

فقلت :

« كل هذا حسن ، ولـكنك فى حالك هذه يجب أن تلزم السكون فلا تتكلم »

ولـكن لم يكن من الميسور أن أمنع جريحى من الـكلام ، فقد أسند رأسه إلى كفه ، ومضى فى الحديث بلهجة أستاذ عظيم فقال :

« لن يستطيع الانسان أبداً أن يفهم العوامل النفسية التى تحمل المنتحر على ارتكاب جريمتـه ! وكيف يستطيع الانسان أن يتكلم عن الأسباب ؟ فقد يدفعنى اليوم سبب من الأسباب إلى اختطاف مسدس وإطلاقه على نفسى ، بينما هذا السبب نفسه لا يحملنى غداً على التضحية ببيضة فاسدة ، فالأمر كله متعلق فى الغالب بالحالة الخاصة التي يكون عليها الانسان فى اللحظة المعينة ... ولأضرب المثل بنفسى ؛ فمن نصف ساعة مضت كنت أرغب رغبة ملحة فى الموت . أما الآن وقد أشعلت الشمعة وأنت جالس إلى جانبى فانني لا أنـكر حتى في ساعة الموت ، فلتفسر لى هذا التغير إذا استطعت : هل تحسنت أحوالى ؟ أم هل بعثت امرأتي من الموت فانتفضت ناهضة من نعشها الذى ترقد فيه على بضع خطوات من هذا المـكان ؟ أم ترى هو تأثير الضوء فى نفسى وحضور شخص غريب إلى جانبى ؟ »

فأجبت لمجرد أن أقول شيئاً :

« لا شك فى أن للضوء تأثيراً ؛ وتأثيره فى التركيب العضوى للانسان ... »

فقاطعنى بقوله :

« إننا نسلم بتأثير الضوء ... ولـكنك تعلم أن هناك أناساً يتحرون على ضوء الشموع . ! وإنه ليكون من الشائن حقاً لأبطال رواياتك أن يستطيع شيء تافه كالشمعة تغيير مجرى مآسيهم مثل هذا التغيير المفاجئ ... وربما أمكن تفسير كل هذا السخف ، ولـكن لسنا نحن الذين نستطيع تفسيره ؛ ومن العبث أن يسأل الانسان أسئلة ما ، أو أن يقدم معلومات ما فيما لا يفهمه ... »

قلت :

« عفواً . . . ولـكننى أستطيع ، مما يبدو على وجهك ، أن أحكم بأنك فى هـذه الساعة . . . تصطنع ما تقول »

فاجفل فاسيليف وقال :

« نعم هذا جائز جداً : فانني بطبيعتى « أبله مغرور » ! فيحسن أن تفسر لي ذلك إن كنت واثقاً بقوتك في قراءة الوجوه ! فمن نصف ساعة أطلقت

الرصاص على نفسي . . . وفى هـذه الساعة تراني أصطنع ما أقول . . فسر لي هذا إن استطعت . . »

نطق فاسيليف بهذه الكلمات الأخيرة فى صوت خافت متداع ، فقد أنهكه التعب ، ثم رقد صامتاً . ومرت فترة سكون . فتدققت النظر فى وجهه ، وقد علته صفرة الموت ، وبدا لى كأنما شعلة الحياة قد انطفأت فى نفسه ، وأن مظاهر الألم الذى أحس به الرجل « الأبله المغرور » كانت هي وحـدها التي أظهرته فى صورة من لا يزال حياً . . وكان من المؤلم أن ينظر الانسان إلى هذا الوجه . . . ولكن ما هو شأن فاسيليف نفسه الذي مازال يحتفظ من القوة ما يمكنه من الجدل ، ومن الاصطناع إن لم أكن مخطئاً ؟ »

ورفع الفتى نفسه فجأة على مرفقه وقال :

« أنت هنا . . أما زلت إلى جانبي ؟ بالله : أصغ إلى هذا ! »

فأصغيت وكان المطر ينهمر على النافذة المظلمة ولا ينقطع لحظة واحدة ، وكانت الريح تهب عنيفة مولولة ، ولقد سمعت السيدة ميمونيه تقرأ فى الغرفة المجاورة هذه الكلمات فى صوت خافت متعب :

« وسأكون أشد بياضاً من الثلج وستسمع أذناي نغمات السرور والفرح »

ولم تكن نبرات السيدة ميمونيه لترتفع أو تنخفض فهى تقرأ هذه الكلمات الجافة على وتيرة واحدة مملة

وأدار فاسيليف عينيه الجازعتين نحوى وقال هامساً :

« أليس ذلك مما يدعو إلى الانشراح ؟ ! بالله مما يرى الانسان ومما يسمع : ولو كان من الميسور أن نطبق هذا الهرج على قواعد الموسيقى لأمكن كما يقول هملت :

« أن نلعن الجاهل وأن تغمر حواس البصر والسمع بأسباب المتع »

وما كان أجدرنى عندئذ بأن أفهم هذا النوع من الموسيقى ! وكم كنت أستطيع أن أشعر بما فيه من جمال ! ولكن قل لى فى أى ساعة نحن ؟ »

قلت :

« نحن الآن فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين »

قال :

« إذن لا يزال الصباح بعيداً . وفى الصباح تشيع الجنازة . وقد وضع لها برنامج لطيف : وسيتبع الانسان النعش وسط الوحل والمطر . ولا يرى فى طريقه غير السماء الملبدة بالغيوم وغير المناظر الكريهة وفتيان الدير والحانات الثانية والوعول النافرة . . . وتغرق سراويل الانسان فى الطين إلى الركب . . . والشوارع التى لا نهاية لها . . ويمر الوقت فى بطء كأنه الأبدية . . . والرجال الغلاظ القلوب . . . وفى وسط الأحجار نجد حجراً . . ! »

وصمت لحظة ثم قال فجأة :

« هل مضى عليك وقت طويل منـذ رأيت الجنرال لوهاتشيف لآخر مرة ؟ »

« لم أره منذ الصيف »

« إنه مغرم بالتنقل ، ولكنه عجوز ضئيل الجسم

ظريف . أوَ مازلت تكتب القصص ؟ »

« نعم أكتب قليلا »

فقال الرجل :

« آه : أتذكر كيف كنت أمرح كالأخرق الأبله ، كالحمار الجامح فى تلك القطع التمثيلية عند ما كنت أتودد إلى زينا ؟ لقد كان ذلك سخفا منى ولكنه كان جميلا ، وكان فكها . . . وإن مجرد ذكراه لتبعث أنفاساً من الربيع .. والآن ! ما أقسى تغير المنظر : هاك موضوعا تكتب فيه : ولكن لاتحاول أن تكتب « يوميات متنحر » فهذا فضلا عن خشونته تقليد لشيء سابق . فلتستخرج من هذا الموضوع شيئاً اجتماعياً فكها »

فقلت :

« أراك مرة أخرى . . . تصطنع ما تقول ، فليس فى موقفك هذا شيء فكه »

فاستوى فاسيليف جالساً وقد ترقرق الدمع فى عينيه . وبدا على وجهه الباهت معنى الحزن العميق وارتجف فكه وهو يقول :

« ليس فيه شيء مضحك ؟ تقول ليس فيه شيء مضحك ؟ »

ثم توقف لحظة عن الكلام وعاد يقول :

« إنك تضحك من غش الكتبة الغشاشين والزوجات الخائنات ، ولكنك لن تجد كاتباً غشاشاً ولا زوجة خادعة قد غشا إنسانا بمثل ماغشنى القدر : لقد خدعت بما لم يخدع بمثله قط أحد المودعين أموالهم المصارف أو أحد الأزواج المغفلين ! فلتتأمل إلى أى حد قد خدعني الحظ : فلقد شهدت بعيني رأسك أنى فى العام الماضى لم أكن أعرف ما أفعل بنفسى من فرط السعادة . والآن هأنذا أمام عينيك ... »

وغاص رأس فاسيليف فى الوسادة وضحك ثم مضى يقول :

« ليس من الممكن أن يتصور الانسان ما هو أشد من هذا التغير حماقة وسخفاً . فالفصل الأول يحتوي على : الربيع والحب وشهر العسل ، شهر العسل حقاً . والفصل الثانى : البحث عن عمل ومكتب الرهون والشحوب والصيدلية . . والغوص غداً فى الأوحال فى الطريق إلى المقبرة »

ثم ضحك مرة أخرى . فشعرت بضيق شديد وصممت على الخروج من ذلك المكان . فقلت :

« أرجوك ثانية أن ترقد هادئاً وسأذهب إلى الصيدلية »

فلم يجبنى ، فارتديت معطفي وخرجت من الغرفة ، وعند اجتيازي الممر نظرت إلى النعش والسيدة ميمونيه تقرأ عليه . وحددت النظر عبثاً فلم أتمكن من أن أتعرف فى وجه زينا الأصفر القاتم ذلك الوجه الفتان الملوء حياة ، الذى رأيته فى اجتماع دار الجنرال لوهاتشيف

فقلت فى نفسى :

« طريق الانتقال . . »

وعلى هذا غادرت البيت غير ناس أن آخذ النسدس معى ، وذهبت إلى الصيدلية . ولكن كان يجب ألا أذهب ، فقد وجدت ، بعد عودتي فاسيليف راقداً فوق الصفة فى حال إغماء ، وقد

انتزعت الضمادات بعنف عن الجرح فانفتح وسال منه الدم من جديد ، وقد أشرق الصباح قبل أن أتمكن من إفاقة الجريح ورد الصواب إليه ، وكان يهذى فى أحلامه ، مرتجفاً ينظر فى أرجاء الغرفة بعينين لاتبصران ، حتى أقبل النهار وسمعنا صوت القسيس يتلو الصلاة مسرعاً على رأس الميتة

ولما ملئت غرفة فاسيليف بالعجائز وفتيات الدير ونقل النعش من مكانه وحمل إلى الفناء الخارجى نصحت للفتى بأن يلزم البيت ، ولكنه لم يستمع إلى نصحى على الرغم من ظلمة الجو وانهمار المطر ومما يعانى هو من ألم . وسار وراء النعش عارى الرأس صامتاً طوال الطريق إلى المقبرة ، ولم يكن ليستطيع نقل قدم عن قدم إلا بجهد شديد ، وكان مابين فترة وأخرى يضغط جنبه الجريح بكف عصبية متقلصة ؛ وكان المعنى المادى على وجهه يدل على فقدان الشعور . ولم يحدث ، غير مرة واحدة عندما أيقظته من سباته بسؤال تافه ، أن حول نظره عن الأرض والسور الداكن ، فرأيت فى عينيه لحظة بريق الغضب الحزين وقرأ على لوحة الارشاد كلمات :

« مل إلى اليمين » مكتوبة خطأ من ناحية الهجاء ، فقال :

« يالهم من جهلة أميين ، فليأخذهم الشيطان : »

ولقد صحبته من المقبرة إلى البيت

* * *

مضى عام واحد على هذه الليلة ، ولم يكد فاسيليف يبلى النعلين اللتين غاص بهما فى الوحل وراء نعش امرأته

وفى هذه اللحظة التى أختتم فيها هذه القصة يجلس فاسيليف فى غرفة استقبالى يعزف على البيانو ويرى السيدات كيف تغنى الفتيات الريفيات أغانى الحب ، والسيدات يضحكن مما يرين ، وهو أيضاً يضحك ممتعاً نفسه بما يحيط به من مظاهر السرور

وإنى لأدعوه للحضور إلى غرفة مكتبي ، فيبدو عليه أثر الامتعاض لحرمانه ذلك الاجتماع الهنى ، ويقبل على فيقف أمامي وقفة الرجل الذي ليس لديه من الوقت مايضيعه فى حضرتى . وإنى لأعطيه هذه القصة وأسأله أن يقرأها . وإذ كان دائما يتفضل بالخضوع لسلطاني فانه يتنهد تنهد القارئ الكسول ويجلس على كرسي كبير ثم يبدأ القراءة . فلا يلبث أن يقول وهو يبتسم :

« تباً لذلك كله .. يالها من أهوال : »

ولكنه كلما أمعن فى القراءة ازداد وجهه تجهما ، وأخيراً تحت تأثير الذكريات الموجعة يصفر لونه اصفراراً مروعاً ، ويهم واقفاً ويستمر فى القراءة وهو واقف ، حتى إذا انتهى من القراءة خطر فى الغرفة من ركن إلى ركن .

وإنى لأسأله :

« كيف تنتهى هذه القصة ؟ »

فيقول متسائلا بدوره :

« كيف تنتهى ؟ . . . . »

ثم ينظر إلى الغرفة ، وإلى ، وإلى نفسه ... فيرى رداءه الجديد المصنوع على أحدث طراز ، ويسمع ضحكات السيدات فى الغرفة المجاورة و .. يرتمى على أحد الكراسى ويبدأ يضحك كما ضحك فى تلك الليلة ثم يقول :

« ألم أكن على حق عند ما قلت لك إن الأمر كله عبث ؟ يالله ! لقد كان على أن أحمل أثقالا تقصم ظهر الفيل ، والشيطان يعلم مبلغ ماقاسيت من ألم .. وليس في الوجود من إنسان كان يستطيع أن يحتمل

من الآلام فوق ما احتملت فيما أظن ، فأين هي آثار ذلك كله ؟ إن الأمر ليدعو إلى الدهشة . لقد كدت أظن أن الأثر الذي تتركه الآلام القاسية في نفس الإنسان لا يمكن أن يمحى وتطمس معالمه وأنه لابد باق أبداً . ومع ذلك أرى هذا الأثر يبلى بأسهل مما يبلى النعلان الرخيصتان ، ولم يبق منه شيء ولو تافهاً ضئيلاً ، حتى ليخيل إلى أنني لم أتألم قط في ذلك الحين ، بل لكأنني كنت أرقص رقصة المازوركا . إن كل ما في الوجود زائل ، وهذا الزوال نفسه عبث باطل ! وإنه لميدان واسع للروائي الاجتماعي ! فلتضع قصتك ، يا صديقي ، خاتمة فكهة ! »

وهنا وصل إلى سمعي صوت السيدات القلقات ينادين على بطل قصتي :

« بيتور نيكولايفتش ، ألا تأتي في الحال ؟ »

فيجيب الرجل « المغرور الأبله » وهو يسوي رباط رقبته :

« في هذه الدقيقة »

ثم يتم حديثه معي فيقول :

« إن كل شيء عبث يدعو إلى الأسف يا صديقي . نعم عبث يدعو إلى الأسف ، ولكن ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ إن كل شيء زائل ، وإني لأشكر — على كل حال — لأمنا الطبيعة عملها في تحويل المادة . ولو أننا احتفظنا بذكرى موجعة لما يتتابنا من آلام الأسنان ومن جميع الأهوال التي لابد أن يقاسيها كل واحد منا ، ولو أن كل هذه الأمور كانت باقية أبدية لقضينا نحن الفانين المساكين أسوأ الأوقات في هذه الحياة الزائلة »

وإني لأنظر إلى وجهه الباسم فأذكر ما كانت تفيض به عيناه منذ عام من معاني اليأس والفزع عند ما كان ينظر إلى النافذة المظلمة . وإني لأراه وهو يلبس دوره العادي في تمثيل المحدث الذكي اللبق ، مستعداً لأن يعرض أمامي نظرياته البليدة كنظرية « تحويل المادة » وأذكر في الوقت نفسه جلسته في وسط بقع الدماء رافعاً إلى عينيه الذابلتين المتوسلتين .

واني لأسأل نفسي في صوت عال :

« كيف تنتهي هذه القصة ؟ »

فيصفر فاسيلييف ويسوي رباط رقبته ويسير متجها إلى غرفة الاستقبال فأنظر إليه محنقاً . ولسبب ما آسف على ما شهدت من آلامه الماضية ، آسف على كل ما شعرت به أنا نفسي نحو ذلك الرجل في تلك الليلة الفظيعة الهائلة وأنه ليخيل إلى كأنني قد فقدت شيئاً ...

عبد الحميد سعدي

تاريخ الأدب العربي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

الطبعة السادسة

في حوالي ٥٠٠ صفحة من القطع المتوسط

يعرض تاريخ الأدب العربي منذ نشأته إلى اليوم

في صورة قوية تحليلية رائعة

ثمنه عشرون قرشاً ويطلب من إدارة الرسالة

ومن لجنة التأليف ومن سائر المكاتب